

نصّ الفتوى

o
p
e
i
k
e
n
d
l
.
c
o
m

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما تقول السادة العلماء أئمة الهدى ومصايح الدجى فيمن يزعم أنه على قدم كل نبي من الأنبياء وليان: ولي ظاهر وولي باطن، وهما أقطاب الغوث^(١) الذي ينتهي إليه حوائج الخلق، وأن له أربعة أوتاد وسبعة نجباء واثنى عشر^(٢) نقيباً وأربعين بدلاً، وأن كلما مات من الاثنا عشر واحداً^(٣) أخذ من الأربعين، ومن السبعة أخذ من الاثنا عشر^(٤)، وكل ينزل من أكثر العدد إلى أقل العدد بحسب مراتب الأوضاع، وأن الغوث بمكة، والقطين أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، والأربعة بأركان الأرض، والنجباء بمصر، والأبدال بالشام، والتقباء بالعراق، وأن الشدة إذا نزلت بأهل الأرض رفعها الأدنى إلى الأعلى، حتى ينتهي الأمر إلى الغوث، فلا يرفع بصره حتى تنفرج تلك النازلة. ويدعون أن لكل قطب علم^(٥) لا يعرفه الآخر، ويسمون أنواعاً من العلوم الظاهرة والباطنة.

(١) كذا في الأصل، والأولى «قطبا الغوث».

(٢) كذا في الأصل، والصواب «اثني عشر».

(٣) كذا في الأصل، والصواب: «من الاثني عشر واحداً».

(٤) كذا في الأصل بالألف.

(٥) كذا في الأصل بالرفع، وحقه النصب.

والمسئول معرفة الحق المشروع، هل هذه الأشياء المسماة لها دليل من كتاب أو سنة؟ أو لها وجود أو لها تأثير؟ أو لها حقيقة ترجع إلى تمثلها في الأكوان أو الأذهان؟ وهل الحديث المروي عن النبي ﷺ: «لا تسبوا أهل الشام، فإنَّ فيهم الأبدال»، هل هو صحيح أم ضعيف؟ وإن كان صحيحًا ما حكمه؟

أفتونا مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى.

الحمد لله . هذه الدعوى على الوجه المذكور لا أصل لها من كتاب ولا سنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أئمة المسلمين وشيوخهم، الذين لهم في الأمة لسان صدق، وإنما يُذكر بعض هذا الكلام عن بعض الشيوخ المتأخرين، مع أنه لا أصل له، وزاد في ذلك من بعدهم ونقصوا، وغيروا في الأعداد والمراتب والصفات، / وقالوا أشياء نعلم مخالفتها لدين المسلمين، بل ٢٣٥ ب ولعقل عقلاء العالمين. وقد يروون في ذلك أحاديث موضوعة، مثل روايتهم أنه كان للمغيرة بن شعبة غلام اسمه هلال، وأن النبي ﷺ قال: «إنه من السبعة»^(١).

وقد روى هذا الحديث بعض المصنِّفين في الرقائق، كما روى غيره من الموضوعات، وأما الشهادة لمعيّن بالجنة فهذا صحيح، فقد شهد النبي ﷺ بالجنة لغير واحد من الصحابة، كالعشرة وثابت بن قيس وغيرهم.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢ / ٢٤) من طريق عطاء الخراساني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن من هذا الباب رجلٌ ينظر الله إليه»، قال: فدخل هلال . . . إلى آخر الحديث، وسنده ضعيف ومنقطع. وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (الأصل الخامس والعشرين بعد المئة) من طريق يحيى بن أبي طلحة عن أبي الدرداء قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد، فقال: «يدخل من هذا الباب رجلٌ من أهل الجنة. . .» الحديث مطولاً. وانظر «الإصابة» (٣ / ٦٠٨).

وهؤلاء الذين تكلموا في هذا من المتأخرين يجعلون الأقطابَ سبعةً على عددِ الأقاليم، ويجعلون الأوتادَ أربعةً كالأوتادِ التي يذكرها المنجمون، ويجعلون الغوثَ واحدًا مقيمًا بمكة، ويجعلون مددَ أهلِ الأرضِ منه، ويقولون: إنه منه يفيضُ على أهلِ الأرضِ ما ينزلُ عليهم من الهدى والرزق ونحو ذلك، ويقولون: إنه لا بُدَّ لكلِّ زمانٍ من ذلك، كما يقول الرافضة: إنه لا بُدَّ لكلِّ زمانٍ من إمامٍ معصوم، وكما يقولُ النصارى: إنه لا بُدَّ من الباب الذي به يُحفظُ أهلُ الأرضِ^(١).

فقليل لبعض هؤلاء: فإذا كان لا بُدَّ كذلك فمن الغوثِ الذي كان بمكة بعد الهجرة على عهد رسولِ الله ﷺ وخلفائه الراشدين، الذي كان هو الممدد لرسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ وهو أفضلُ منهم؟ فبُهِتَ مدَّعي ذلك.

وقد يقولون مع ذلك بأنَّ لكلِّ زمانٍ خَصْرًا، ويجعلون الخَصْرَ مرتبةً محفوظةً لا شخصًا معينًا، ويدَّعون أنه ينزلُ كلَّ عامٍ على البيتِ ورقةٌ مكتوبٌ فيها اسمُ غوثِ ذلك العامِ وخَصْرِهِ. ونحو هذه الدعاوي التي يَعْلَمُ كلُّ عاقلٍ بطلانها، وضلالَ معتقدِها، وكذبَ المُخْبِرِ بها عمدًا أو خطأً.

ومن هؤلاء من يُعيِّن لكلِّ قريةٍ من القرى واحدًا من هذا العدد

(١) ذكر المؤلف نحوه في «مجموع الفتاوى» (١١ / ٣٦٤، ٤٣٩، ٤٤٢؛ ٢٧ /

٩٦) و«منهاج السنة» (١ / ٩١-٩٢)

أو أقل أو أكثر، ويتكلمون في ذلك نظماً ونثراً بكلامٍ يُناقضُ العقلَ ويخالف دينَ الإسلام.

وحقيقة الأمر في ذلك أنّ أولياء الله هم المؤمنون المتقون^(١)، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٢)

/ وفي صحيح البخاري^(٣) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ١٢٣٦ يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي، (وإن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)^(٤)، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

وأيضاً فإن الله بعبادات عباده المؤمنين ودعائهم يجلب للناس

(١) بين المؤلف ذلك في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وغيره من مؤلفاته ورسائله.

(٢) سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.

(٣) برقم (٦٥٠٢).

(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش، ولم يظهر منه إلا قليل.

المنافع وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَضَارَّ، كما في السنن^(١) أن النبي ﷺ قال: «وَهَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ، بِدَعَائِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ». وانتفاع الخلق بدعاء المؤمنين وصلاتهم كانتفاع الحي والميت بدعاء المؤمنين واستغفارهم، ونزول الغيث بدعاء المؤمنين واستغفارهم، والتضر على الأعداء بدعاء المؤمنين واستغفارهم، وأمثال ذلك مما اتفق عليه المؤمنون.

فهذان الأصلان هما أصلان ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع. وليس لأولياء الله عددٌ محصور تتساوى فيه الأزمنة، ولا لهم مكانٌ معيّنٌ من الأمكنة، بل هم يزدادون وَيَنْقُصُونَ بحسبِ زيادةِ أهلِ الإيمان والتقوى ونقصانهم. فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى النَّاسِ، وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ^(٢): «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، / إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

وقد ثبتَ في الصحيح^(٣) أن إبراهيم الخليل قال لسارة: «إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ». وقد أخبر الله عن نوح

-
- (١) أخرج البخاري (٢٨٩٦) عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ». ورواه النسائي (٤٥ / ٦) عن مصعب عن أبيه سعد نحوه، وفيه: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعْفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ». وأخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ١٧٣) من طريق مكحول عن سعد نحوه.
- (٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار المجاشعي.
- (٣) البخاري (٢٢١٧، ٣٣٥٨) عن أبي هريرة.

أنه ﴿مَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١)، وأنَّ الله أغرقَ أهلَ الأرضِ إلَّا من كان معه في السفينةِ .

وقد كانت الشام قبل أن يخرج إليها موسى وبنو إسرائيل يغلبُ على أهلها الكفرُ، فأورثها الله لبني إسرائيلَ، فصارَ فيها من الأنبياءِ والصالحين ما لم يكن فيها نظيرُهُ قبلَ ذلك .

ولمَّا بعث اللهُ محمدًا ﷺ آمنَ به طائفةٌ قليلةٌ، فكان أولَ من آمنَ به أبو بكرٍ وعليٌّ وزيدٌ وخديجةٌ، وآمنَ على يدَي أبي بكرٍ عثمانُ وطلحةٌ والزبيرُ وسعدٌ وعبدالرحمنُ، ثمَّ تزايدَ أهلُ الإيمانِ حتَّى بلغوا أربعينَ، فلم يكن بمكةَ قبلَ ذلكَ أربعونَ مؤمنًا، بل ولا عشرةً مؤمنونَ، بل ولا أربعةً. ثم إنَّ الإيمانَ زادَ، وهاجرَ النبي ﷺ إلى المدينة، وكثُرَ السابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصارِ، الذين اتبعوهم بإحسانَ، الذين رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه، وكلُّ هؤلاء من سادات أولياء الله المتقين، فبايعه تحتَ الشجرةِ أكثرُ من ألفٍ وأربع مئةٍ قد رضي اللهُ عنهم، وكلهم من أهل الجنة، قال اللهُ فيهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾^(٢) .

وفي الصحيح^(٣) أنه قال لخالد بن الوليد لمَّا^(٤) سَابَّ

(١) سورة هود: ٤٠ .

(٢) سورة الحديد: ١٠ .

(٣) البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) .

(٤) «لما» مشطوب عليها في الأصل سهواً .

عبدالرحمن بن عوف: «يا خالد، لا تَسْبُوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه». أ٢٣٧ وخالدٌ هو ممن أنفقَ من بعد الفتح وقاتل، فإنه أسلم بعد/ الحديبية^(١)، فجعلَ النبي ﷺ هؤلاء التابعينَ من الصحابةِ بالنسبةِ إلى السابقين منهم بهذه المنزلة.

وانتشرَ الإسلامُ بعد هذا في أرضِ اليمن والشام والعراق وخراسان ومصر ومغرب^(٢)، حتى بقي في العصر الواحدٍ من هذه البلادِ من أولياءِ الله أُلوفٌ مؤلَّفةٌ. فمن قَصَرَهُم حينئذٍ على الأربعين أو ثلاث مئةٍ كان جاهلاً، كما أنَّ من بلغَ بهم في أولِ الإسلامِ هذا العددَ كان جاهلاً.

وأما الأسماءُ المذكورة فتسميةُ «الغوثِ» لا أصل لها في كلامٍ أحدٍ من السلف بالمعنى الذي يدَعِيه هؤلاء^(٣)، ولا يُعرَفُ عن أحدٍ من السلف أنه قال: فلانٌ هو غوثُ هذه الأمة، أو إنَّ للأمةِ غوثًا بمكة أو يجيء مكة.

وأما لفظُ «الثُّقَباءِ» فإنما ذُكِرَ في الكتابِ والسنة بالمعنى الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا

(١) انظر «أسد الغابة» (٢/ ١٠٩) و«الإصابة» (١/ ٤١٣). وقد اختلف في تاريخ إسلامه على أقوال، ولا يصحُّ له مشهد مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة.

(٢) كذا بدون الألف واللام.

(٣) انظر كلام المؤلف على «الغوث» في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٩٦؛ ١١/ ٤٣٧)

مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا»^(١). وكذلك النبي ﷺ جَعَلَ لِلْأَنْصَارِ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا عَلَى عَدَدِ نَقَبَاءِ مُوسَى^(٢). وكذلك قال النبي ﷺ لِأَصْحَابِهِ عَامَ حُنَيْنٍ لَمَّا أُطْلِقَ لِهَوَازِنِ السَّبِيِّ فَقَالَ: «لِيَرْفَعْ لَنَا عُرْفَاؤُكُمْ مِنْ طَيْبٍ مِمَّنْ لَمْ يُطَيَّبْ»^(٣). وكان العسكرُ اثني عشرَ ألفًا.

وكذلك الخلفاء الراشدون كانوا يُعَرِّفُونَ العُرَفَاءَ وَيُنَقِّبُونَ النُّقَبَاءَ، لِيُعَرِّفُوهُمْ بِأَخْبَارِ النَّاسِ، وَيُنَقِّبُوا عَنْ أَحْوَالِهِمْ. فهؤلاء هم النقباء المعروفون في الكتاب والسنة وكلام السلف.

وأما من جَعَلَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ نَقَبَاءَ هُمْ اثْنَا عَشَرَ، أَوْ جَعَلَ الخَضِرَ نَقِيبَ الْأَوْلِيَاءِ، فهذا باطلٌ، فَإِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا يَعْرِفُ أَعْيَانَهُمْ عَلَى التَّفْصِيلِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، لَا نَبِيٌّ وَلَا غَيْرُ نَبِيٍّ. وقد كان على عهد النبي ﷺ بِمَدِينَتِهِ مُؤْمِنُونَ^(٤) وَمُنَافِقُونَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(٥).

وإذا لم يَقَعِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ لِخَيْرِ الْخَلْقِ، فغَيْرُهُ

(١) سورة المائدة: ١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠) من حديث كعب بن مالك. وذكر ابن هشام في «السيرة» (١/ ٤٤٣، ٤٤٤) أسماءهم، فراجع.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٠٨، ٢٥٤٠، ٢٦٠٨، ٣١٣٢، ٤٣١٩، ٧١٧٧) من حديث عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة.

(٤) تكررت «مو» في الأصل.

(٥) سورة التوبة: ١٠١.

أولى، ومن لم يَعْرِفْ أعيانَ المنافقين جَوَزَ على مَنْ ظاهره الإسلام أن يكون مؤمناً، وإذا لم يُعَلِّمْ فُجُورَهُ جاز أن يكون تقيًا، وكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ وليٌّ لله .

وقالوا لعمر بن الخطاب: من يُعْطَى المغازي؟ قيل: فلان وفلان وآخرون لا يعرفهم أميرُ المؤمنين، فقال: إن لا يكن عمر يعرفهم فإن الله يعرفهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (١).

وقد ثبت في الصحيح (٢) أن النبي ﷺ يَعْرِفُ أمته يومَ القيامةِ بسِيمَاهُمْ، فإنهم يكونون غُرًّا مُحَجَّلِينَ من آثارِ الوضوءِ .

وأيضًا فأولياء الله إذا كان لهم نُقَبَاءُ كان النُّقَبَاءُ أخبرَ بهم ممن يرفعون أخبارهم إليه، ومعلومٌ أن الذين يرفعون أخبارهم إليه سواء كان نبيًّا أو غير نبيٍّ، هو أعلى مرتبةً من النُّقَبَاءِ، فيكون المفضولُ أعلمَ بأولياءِ الله من الفاضل، وهذا ممتنعٌ. بخلاف النُّقَبَاءِ الذين جاء بهم الكتاب والسنة، فإنهم يرفعون أخبارهم الظاهرة التي يشهدُ بها الشهودُ ويحكمُ بها الحُكَّامُ، وإن كان قد يكون في ذلك ما يُستدلُّ به على الإيمان والتقوى، لكنَّ الدليل لا ينعكس، فلا يلزم من عدم الدليلِ المعينِ عدمُ المدلولِ عليه، فلا يُشْهَدُ على شخصٍ معين أنه ليس من أولياء الله إلا بعلمٍ يقتضي ذلك. والنقباء لا

(١) سورة المدثر: ٣١.

(٢) البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

يشهدون بذلك، ومن لم يشهد بذلك لم يكن عالماً بمن هو وليّ
ممن ليس بوليّ.

وأما لفظ «الأبدال»^(١) فقد جاء ذكره في كلام كثير من السلف:
فلانٌ كان يُعدُّ من الأبدال. ولفظ «الأوتاد»^(٢) جاء في كلام بعضهم.
فأما لفظ «الأبدال» فقد فسّر بثلاث معانٍ:

قيل: سُمُّوا أبدالاً لأنهم أبدالٌ عن الأنبياء، وهذا المعنى صحيح.

فإن الأنبياء، / لهم خُلفاء، كما كان الخلفاء الراشدون خلفاءً للنبي ﷺ،
وقد كان له في حياته ولغيره من الأنبياء خلفاء في أمرٍ دون أمرٍ، فإنه
كان إذا خرج في غزٍ أو حجٍّ أو عمرة استخلف على المدينة بعض
أصحابه، كما كان يستخلف ابن أم مكتوم وغيره، واستخلف علي بن
أبي طالب [في] غزوة تبوك، وكان قد خرج معه عامة أصحابه، ولم يبق
بالمدينة من المؤمنين إلاّ معذور، غير الثلاثة الذين خُلفوا، فخرج إليه
عليّ، فقال: يا رسولَ الله، أتدعيني مع النساءِ والصبيان؟ فقال: «أما
ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»^(٣) وقد قال تعالى:
﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

(١) انظر كلام المؤلف على هذا اللفظ في «مجموع الفتاوى» (١١ / ٤٤١).

(٢) انظر عن هذا اللفظ: «مجموع الفتاوى» (١١ / ٤٤٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠٤) وأحمد في «المسند» (١ / ١٨٥) والترمذي (٢٩٩٩)،
٣٧٢٤ من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٢.

فاستخلف موسى هارون مدةً ذهابه للميقات إلى أن عاد.

وكذلك كان للنبي ﷺ في حياته وُلاةٌ على الأمصار كعتّاب بن أسيد وخالد بن سعيد وغيرهما، وسُعاةٌ على الصدقات ونوابٌ في التعليم، كعمازٍ وأبي موسى، وكلٌّ من هؤلاء خليفةٌ له وبدلٌ عنه في بعض الأمور دون بعضٍ.

وجاء في حديثٍ وصفُ الذين يُحِيثُونَ السُنَّةَ وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ بأنهم خلفاءُ النبي^(١)، وللأنبياء أيضًا ورثةٌ كما في الحديث المشهور في السنن: «العلماء ورثةُ الأنبياء»^(٢). والخلافة والوراثة قد تكون في بعض الأشياء دون بعضٍ، فمن نال بعضَ ما يُعِثُوا به من العلم فهو وارثٌ لذلك المقدار، ومن قام مقامهم في بعض الأمر فقد خلفهم في ذلك على البدلية، ومن قام مقامهم في بعض الأمر كان بدلاً منهم في ذلك. وقد استسقى عمر بالعباس وقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا»^(٣).

ومعلوم أنّ من جملةِ أحوالِ الأنبياءِ دعاءهم للخلق، وما يحصل

(١) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص ٥) وأبو نعيم في «ذكر أخبار

أصبهان» (٨١ / ١) والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص ٣١) من

حديث علي. وهو حديث موضوع، انظر الكلام عليه في «الضعيفة» (٨٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه

(٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠) من حديث أنس بن مالك.

بدعائهم وعبادتهم من الرزق والنصر، فمن قام مقامهم في بعض ذلك كان بدلاً منهم في ذلك البعض.

وقيل: سُمُّوا أبدالاً لأنه كلما مات رجلٌ أبدلَ اللهُ مكانه رجلاً.

وهذا لا يصحُّ، ولا مدحٌ فيه/ فإنَّ كونَ الشخص إذا مات قامَ مقامه ٢٣٨ ب
غيره قد يكون مع إيمانه، وقد يكون مع كفره، والله جعل بعض بني
آدم خلفاء بعض مع اختلاف أعمالهم. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾^(١)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا
ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ﴾^(٢) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴾^(٣). فقد جعل أمة محمد خلائفَ عمَّنْ أهلك من
القرون المكذبين الظالمين.

وقد قال نوحٌ له: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴾^(٤)، فهذا الولد الفاجر الكفارُ بَدَلٌ عن أبيه. فليس في
إبدالِ شخصٍ مكانَ شخصٍ مدحٌ إلا أن يكون الأولُ ممدوحًا، فإن
لم يُعتبر في معنى البديل أن يكون بدلاً عن نبيٍّ أو مَنْ يقوم مقامَ نبيٍّ
لم يكن في كونه بدلاً عمَّنْ كان قبله صِفَةً مدح.

وأيضًا فلو كان كلُّ من مات قامَ مقامه غيره للزِمَ أن يقومَ مقامَ

(١) سورة الأنعام: ١٦٥.

(٢) سورة يونس: ١٣-١٤.

(٣) سورة نوح: ٢٧.

أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ أمثالهم، ولم يكن كذلك. وهؤلاء أفضل خلفاء الرُّسل وأبدالهم ووراثتهم.

وأيضاً فمن يكون بدلاً عن الأنبياء كثيرون إذا كَثُرَ الإيمان والتقوى، قليلون إذا قلَّ ذلك، ومعلومٌ أنّ المؤمنين المتقين ليسوا إذا مات منهم واحدٌ قامَ مقامه غيره.

وقد قيل في معنى الأبدال: إنهم بدّلوا سيئاتهم حسناتٍ. وهذا معنى التائبين، فكل مؤمنٍ تابَ من سيئاته له هذا المعنى.

وزعمَ بعضهم أنّ البدلَ إذا غابَ عن مكانه أُبدِلَ بصورةٍ على مثاله. وهذا باطل، ولم يكن السلف يَعْنُونَ بالبدل هذا المعنى، ولا يجعلون ذلك لازماً لمن يسمونه بهذا الاسم.

وأما اسم «القُطب»^(١) فالقُطب مأخوذ من قُطب الرّحَى، وهو ما يدور عليه الرّحَى، وكذلك قُطب الفلك وغير ذلك من الأجسام الدائرة. فالشخص الذي يدور عليه أمرٌ من الأمور هو قُطب ذلك الأمر، وأفضل الخلق هم الرُّسلُ، وعليهم تدور رسالةُ الله إلى خلقه، وتبليغهم أمره ونهيه ووعدّه ووعدّه، / وكلُّ من دارَ عليه أمرٌ من الأمور فهو قُطبه، فإمامُ الصلاة قُطبُ الإمامة، ومؤدّنُ المسجد قُطبُ الأذان، وحاكمُ البلد قُطبُ القضاء، وأميرُ الحرب قُطبُ هذه الإمارة، وأئمة الهدى - كالشيوخ الذين يُقتدى بهم في دين الله - هم أقطابُ مآدارٍ عليهم من ذلك. ومن يُنصر المسلمون ويُرزقون

(١) انظر كلام المؤلف على هذا اللفظ في «مجموع الفتاوى» (١١ / ٤٤٠).

بدعائهم وإخلاصهم وصلاتهم هم أقطاب ما دارَ عليهم.

وفي الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على مال زوجها، وهي مسئولة عن رعيته، والمملوك راع على مال سيده وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».

وكان الخلفاء الراشدين^(٢) أقطاب الأمة، دارَ عليهم من مصالح الأمة في دينها ودنياها ما لم يدُر على أحدٍ مثله، ثمَّ بعدَهم تفرَّق الأمر، فصارَ الملوكُ والأمراءُ يقومون ببعض الأمر، وأهل العلم والدين يقومون ببعض الأمر، وهؤلاء من أولي الأمر، وهؤلاء من أولي [الأمر]^(٣). وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٤) يتناول الطائفتين العلماءَ والأمراءَ إذا أمرُوا بطاعة الله، فمن أمرَ بمعصية الله فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، وقد جاء في الأثر: «صِنْفَانِ إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ: الْعُلَمَاءُ

(١) البخاري (٨٩٣)، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠،

(٧١٣٨) ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر.

(٢) كذا في الأصل بالياء والنون، ويصحَّ إذا جعلنا «الخلفاء الراشدين» خبراً

مقدماً لكان، و«أقطاب» اسماً مؤخراً مرفوعاً.

(٣) لا يوجد في الأصل، وهو واضح من السياق.

(٤) سورة النساء: ٥٩.

والأمراء»^(١).

٢٤٠ ب وقد يكون في الزمان رجلٌ هو أفضل أهل الأرض، كما قد يكون رجلان وثلاثة وأربعة، ولكن ليس في الوجود / رجلٌ هو أفضل أهل الأرض، وفيه ما يقتضي أنه بوجوده يحصل للناس الرزق، ويتصرون على الأعداء، وتهتدي قلوبهم مع كونهم معرضين عن طاعة الله ورسوله. بل كان نوحٌ أفضل أهل الأرض، وقد مكث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، وقد قال نوحٌ: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُوَّجَاهَةً لِخُلُوعِهِمْ وَأَسْتَسْخَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا ﴿٧﴾ وَأَسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ﴾^(٢). ثم إن الله أغرق أهل الأرض إلا من آمن به. وكذلك غيره من الرسل، كهؤدٍ وصالح وشعيب ولوط وغيرهم.

نعم قد يحصل بدعائه وعبادته من الخير ويندفع من الشر ما لا يحصل بدون ذلك، كما في قوله: «بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»^(٣). وقد قال تعالى لنبيه: ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٩٦) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١ / ١٨٤) من طريق محمد بن زياد الشكري عن ميمون بن مهران عن ابن عباس مرفوعًا. وهو حديث موضوع، آفته محمد بن زياد، وهو وضاع كذاب.

(٢) سورة نوح: ٥-٧.

(٣) جزء من حديث سبق تخريجه.

وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّآ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَو تَزَلَّيْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ (٢). يقول: لولا أن تطأوا أولئك المؤمنين والمؤمنات الذين لم تعلموهم إذا دخلتم مكة بالسيف، لسلطكم على أهل مكة، ولو تميّز المؤمنون من الكُفَّار لعذبنا الكُفَّار عذابًا أليماً. فهذا ونحوه مما يُوافق دينَ المسلمين.

/ وأما ما يدّعيه قومٌ في القطب والمرتبة التي يُسمّونها «القطبية» ٢٤١ أ
و«القطبانية» فمن الغلوّ الذي يُشبهه غُلوّ النصارى والرافضة، كقول أحدهم: القطب الغوث الفرد الجامع، وتفسيرهم ذلك بأن مدد أهل الأرض يكون من جهته، وأن الله إذا أنزل إلى أهل الأرض خيراً من هُدًى ورزقٍ ونصرٍ فإنه يُنزله عليه، ثم منه يفيض إلى سائر الخلق.

وقد يدّعي أحدهم أنه منه مددٌ ملائكةِ السماواتِ وطيرِ الهواءِ وحيتانِ الماء، وأنه يُعطي الملكَ وولايةَ اللهِ لمن يشاء ويصرف ذلك عن من يشاء. ونحو هذه المقالات التي تجعلُ للقطبِ نوعاً من الإلهية والربوبية التي لم تحصلُ للأنبياء.

وآخرون يجعلون ذلك للغوث، ويجعلون مسمى الغوث أعلى

(١) سورة الأنفال: ٣٣.

(٢) سورة الفتح: ٢٥.

من مسمى القطب. وآخرون يجمعون بين الاسمين فيقولون:
«القطب الغوث»، كما تقدم.

فهذا وأمثاله من أعظم الكذب والمحال، ومن أعظم الشرك والضلال، وهو شبيه بالإفك والشرك الذي ذمَّ الله به المشركين وأهل الكتاب. وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين الكذب والشرك، كقوله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿١﴾﴾، وقول الخليل: ﴿أَيْفَاكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (٣).

٢٤١ ب

/ وما يُنزل الله على قلوب عباده من الهدى والإيمان هو بمتزلة ما يعطيهم إياه من الرزق، ومعلوم أن ما يُنزلُه من المطر ويُنبِتُه من النبات لم ينزله قبل ذلك على شخصٍ من البشر، وكذلك ما يُغذي به عباده من الطعام والشراب والهواء لم يتغذَّ به قبله واحدٌ من الناس، ثم انتقل عنه إلى الناس، وأنه... (٤) من الهدى هم الرسل صلوات الله عليهم، فالرسول يدعو إلى الله ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، وهو يهديهم بمعنى أنه

(١) سورة الحج: ٣٠-٣١.

(٢) سورة الصافات: ٨٦.

(٣) سورة القصص: ٧٤-٧٥.

(٤) هنا كلمة لم أستطع قراءتها.

يدعوهم وَيُبَيِّنْ لَهُمْ، وليس في قدرته أن يجعل الهدى ولا الضلالة في قلب أحد، بل ذلك لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾^(٢) أي من يُضِلَّهُ اللَّهُ لَا يُهْدِي، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(٣)، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا يَضَلُّهُمُ وَلَا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤). ولهذا أمر الله عباده أن يقولوا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٥)، وهذه الهداية المطلوبة من الله، لا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ.

وفي الصحيح^(٦) أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنتَ تحكمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِنِي لما اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وقد ثبت في الصحيحين^(٧) عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة النحل: ٣٧.

(٣) سورة الكهف: ١٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٧٢.

(٥) سورة الفاتحة: ٦.

(٦) مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة.

(٧) البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري.

منها طائفة قَبِلَتِ المَاءَ، فَأُثْبِتِ الكَلَاءَ وَ العُشْبَ الكَثِيرَ، وكانت منها طائفةٌ أَمَسَكَ المَاءَ فَسَقَى الناسَ وَزَرَعُوا، وكانت منها طائفةٌ إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانُ/ لَا تُمَسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً. فَذَلِكَ مَثَلٌ مَن فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالْعِلْمِ، وَمَثَلٌ مَن لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

فقد بَيَّنَّ ﷺ أَنَّ مَثَلِ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ كَالْمَاءِ، وَالْمَاءُ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ المَحَلِّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِ، فَهَكَذَا مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ يَخْتَلِفُ أَثْرُهُ بِاخْتِلَافِ القُلُوبِ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا، فَكَمَا أَنَّ الزَّرْعَ يَحْصُلُ مِنَ المَاءِ وَمِنَ التُّرْبَةِ الطَّيِّبَةِ، فَهَكَذَا الهُدَى، يَحْصُلُ مِنَ هِدَايَةِ الأنبياءِ وَمِنَ القُلُوبِ القَابِلَةِ لذلِكَ.

فإذا كان هذا حال الرسل مع من يخاطبه الرسول ويكلّمه ويحرص على هُدايه، لا يَقْدِرُ عَلَى جَعْلِ الضالِّ مهتديًا، فكيف يُجْعَلُ شَخْصٌ دُونَ الرُّسُلِ بِكثِيرِ يَهْدِي الخَلْقَ كُلَّهُمْ، لَا سَمِعُوا كَلَامَهُ وَلَا رَأَوْهُ، وَلَا عَرَفُوهُ وَلَا عَرَفُوا مَا قَالَ؟ وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الرافضةِ فِي المُنْتَظَرِ الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ لَهُ أَحَدٌ بِحِسِّ وَلَا بِخَبَرٍ، وَلَا وَقَعَ لَهُ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثْرٍ.

وَفِي الجُمْلَةِ فَمَا يَقُومُ بِقَلْبِ الإنسانِ مِنْ مَعْرِفَةِ الهُدَى وَالْعِلْمِ وَالإيمانِ، لَا يَنْتَقِلُ عَنْهُ وَيَقُومُ بغيرِهِ، وَلَكِنْ قَدْ يَقُومُ بغيرِهِ^(١) إِذَا عَلَّمَهُ وَخاطَبَهُ، مَعَ بقاءِ الهُدَى وَالْعِلْمِ فِي قَلْبِ الأَوَّلِ. وَلِهَذَا يُشَبَّهُ

(١) تَكَرَّرَتْ كَلِمَةُ «بغيرِهِ» فِي الأَصْلِ.

العلمُ بالمصباح الذي يقتبس منه الناس وهو لا ينقص، فإن المقتبس من المصباح يُحدِّثُ اللهُ له نارًا في دُبَالَةِ مصباحه من غير أن ينتقل إليه من ذلك المصباح شيء، فهكذا العلم. وقد يُعطي اللهُ رجلاً من العلم والهدى نظيرَ ما أعطى غيره بدون تعليم الأول وخطابه.

فهذا الغوث القطب/ إذا لم يُعلِّمِ الناس ويُخاطِبْهُمْ كان ما ٢٤٢ ب جعله اللهُ في قلوب الناس من الهدى والعلم نظير ما في قلبه إذا قدر من... (١)، ولكن لم يكن سببًا في ذلك، فضلًا عن أن يكون من قلبه فاض إلى قلوبهم، لاسيما إذا لم يره الناس ولا عرفوا ما قال ولا فعل، فإن الإنسان قد يرى كيان الرجل وآثاره، أو يرى وجهه وعمله، فيحصل له بذلك من الهدى والعلم ما يسره اللهُ له، أما بدون سمع هذا وبصره لذلك، وبدون خطابٍ دالٍّ له أو لمن يوصل إليه، فكيف يصل إليه منه هدى؟ فضلًا عن أن يكون منه يحصل هدى جميع الخلق.

فليتدبر اللبيب هذا يتبين له أن ما وصفوا به قطبهم وغوثهم أمرٌ لا يقدرُ عليه الأنبياء في العلو، ومع هذا فمعلِّمو الكتاتيب ومقرئو القرآن ومعلِّموهم آدابَ الإسلام أهدى للخلق من هذا القطب الغوث الذي قدره في الأذهان، ولا حقيقة له في الأعيان، كما قدر الرافضة وعبدة الصلبان. وإذا كان هذا في الهدى الذي يحصل

(١) هنا كلمة غير واضحة في الأصل.

بالتعليم والخطاب، فما الظن بالرزق الذي هو أعيان تنتقل من محل
 إلى محل، أو اغتذاءً يقوم بالإنسان لا يُصوَّر أن يقوم بغيره. نعم
 يمكن أن يَحْصُلَ بالدعاء المستجاب للإنسان من الهدى والرزق
 والنصر ما لا يَحْصُلُ بدون ذلك، كما ذكرناه أولاً في قوله: «وهل
 تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إِلَّا بضعفائكم، بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم».
 وكذلك توجه القلوب والهمم له من الأمر بحسب ما يقدره الله،
 وهذا عام الوجود لا يختص/ بشخص معين، ولا يكون الأمر في
 ٢٤٣ أ ذاك عامًّا للخلق. أما وهذا أمرٌ لم يَحْصُلْ للأنبياء والمرسلين،
 فكيف من دونهم؟

ولا ريبَ أنَّ هؤلاء الضالِّين الغلاة من الذين جعلوا بين الله
 وبين خلقه وسائطَ جعلوهم له أندادًا وشركاءَ وشفعاءَ، كما فعلته
 النصارى بالمسيح وأمه والأخبار والرهبان. قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا
 أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
 أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ^(١). ولهذا أمر نبيّه أن يقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا
 يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿١٥١﴾ ^(٢).

ودين الله الذي بعث به رُسُلَه وأنزَلَ به كُتُبَه أثبت وساطة الرسل

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

بين الله وبين خلقه، فيُبلغونهم أمره ونهيّه وخبره ووعدّه ووعدّه، ويقطعون وساطة المخلوقات في العبادة والاستعانة والدعاء والتوكل، فلا يُعبد إلا الله، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُدعى إلا هو، فإنه لا ربّ غيره، ولا خالق غيره، ولا إله سواه. وكلّ ما خلقه من الأسباب فإنه موقوفٌ على سببٍ آخر يشركه ويُعِينه، وله مانعٌ يحجبه ويُعوّقه، فما من الموجودات شيء يستقل بالتأثير غيرُ الله، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ما جعل سبباً كإحراق النار فلا بد له من مُعين، وهو قبولُ المحلّ، وقد يحصلُ مانع كما حصل في نار إبراهيم، / وبهدى الرسل ودعائهم يهتدي الخلق، ٢٤٣ ب ولكن هدى الخلق موقوف على قبولهم.

وقد يكون القلبُ مائلاً للهدى، لكن يحصلُ له مانعٌ يُعارضه، كما قال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ

(١) سورة الأنعام: ١١٢.

(٢) سورة آل عمران: ٩٩.

(٣) سورة الزخرف: ٣٧.

بَعْدَ إِذْ جَاءَ فِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾^(١). ونظائر هذا كثير.

فمن عدل عن سبيل المرسلين، فلم يتابعهم ويضع أمرهم ونهيهم قطع ما بينه وبين الله، فصار مشركاً بالله يدعو غير الله، إما الملائكة وإما الكواكب وإما الجن، وإما البشر كالأنبياء والصالحين، وإما صور هؤلاء وتمثيلهم، وإما ما يظنه موجوداً من هؤلاء. ويتخيل في هؤلاء من صفات الإلهية ما لا حقيقة له، ويثبت الوسائط في خلق الله وربوبيته، ويجعل له شركاء وشفعاء بغير إذنه، وهو سبحانه كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٣).

أ٢٤٤

والناس في الشفاعة على طرفين ووسط^(٤):

فالمشركون والنصارى ونحوهم أثبتوا شفعاء لهم بدون إذنه، وهذه الشفاعة التي نفاها الله في كتابه، فقال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِلَّهِ

(١) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٣) سورة سبأ: ٢٢-٢٣.

(٤) انظر كلام المؤلف في «مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٨-١٥١، ١١٦-١٢٠،

٣١٣-٣١٤).

السَّفْعَةَ جَمِيعًا ﴿١﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢﴾ ﴾ .
 وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنشِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَّا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَقَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴿٤﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ﴿٥﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَّا تَجْرِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

/ وأما الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، فنفوا الشفاعة بإذن الله وبغير إذنه، وهؤلاء ضلال، وإن كان ضلال الأولين أعظم، إذ ذلك الضلال شرك بالله، وهذا من البدع المحدثه في الإسلام. ومع هذا فقد صار كثير من المتأخرين المنتسبين إلى العمل والعبادة، يُثبت نوعاً من هذه الشفاعة التي أثبتها المشركون والنصارى، فصاروا أسوأ حالاً من الخوارج والمعتزلة من هذه الجهة، كما أن هؤلاء ونحوهم

(١) سورة الزمر: ٤٣-٤٤ .

(٢) سورة الأنعام: ٩٤ .

(٣) سورة يونس: ١٨ .

(٤) سورة السجدة: ٤ .

(٥) سورة البقرة: ٢٥٤ .

(٦) سورة البقرة: ٤٨ .

يُشْتَبَنُ القدر الذي نفته المعتزلة ونحوهم من القدرية، فتكون بذلك خيراً منهم، لكنهم قد يحتجون به على الشرع، بل قد يلاحظونه، ويُعرضون عن الأمر والنهي، ويجعلونه الحقيقة التي تدفع مقتضى الشريعة، وهي الحقيقة الكونية، فيصرون بذلك مُضَاهِينَ للمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١).

ومعلوم أن هؤلاء المشركين شرٌّ ممن جحد القدر من المعتزلة ونحوهم، فهؤلاء الذين يدفعون الأمر والنهي الشرعيين ناظرين إلى الحقيقة الكونية، ويُثبتون الشفاعة التي أثبتها المشركون والنصارى، شرٌّ من الخوارج والمعتزلة من هذا الوجه ومن هذا الوجه، / فإنهم ١٢٤٥ جمعوا بين الإشراك والبدع في العبادات وبين الاحتجاج بالقدر. وهذا حال المشركين الذين ذمهم الله في كتابه، فإنهم كانوا تارة يعبدون غير الله، وتارة يزعمون عبادة لم يشرعها، ويُحرمون ما أحلّه، وتارة يحتجون بالقدر. وقد ذكر الله عنهم في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ما فيه عبرة للمعتبرين، فإنه سبحانه قرّر في سورة الأنعام توحيدَه وعبادته وحده لا شريك له، وأنه هو الذي يُدعى عند الشدائد، وهو الذي يكشف الضّر ويُنزل الرحمة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ

(١) سورة الأنعام: ١٤٨.

(٢) سورة الأنعام: ٤٠-٤١.

وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ
حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

وهذه الآية عامّة في كل من أراد الله بعمله. ودعائهم بالغداة
والعشي يتناول من صلى صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر،
وليست هذه الآية مختصة بأهل الصفة ولا نزلت فيهم، فإن هذه
الآية نزلت بمكة (٣).

/ وكذلك الآية الأخرى التي في سورة الكهف: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ۚ
مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرْقَانًا ﴿٢٨﴾ (٤). فإن سورة الكهف مكية أيضاً باتفاق العلماء،
والصُّفَّةُ إنما كانت بالمدينة، لم تكن بمكة، ولكن طلب

(١) سورة الأنعام: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام: ٥١-٥٢.

(٣) أخرج أحمد في «مسنده» (١/ ٤٢٠) عن ابن مسعود قال: مرّ الملاء من
قريش على رسول الله ﷺ، وعنده خبّاب وصهيب وبلال وعمّار، فقالوا: يا
محمد! أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن...، وقد ذكر ابن كثير (٣/ ٢٦٠)
أنها مكية لا يمكن نزولها في أهل الصفة. وراجع تفسير الطبري (١١/ ٣٧٦)
بتحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

قومٌ من رؤساء المشركين من النبي ﷺ أن يطرد المؤمنين الضعفاء والفقراء عنه، فأنزل الله هذه الآية^(١)، يأمره فيها بأن لا يطرد أحداً لأجل ضعفه أو فقره إذا كان مؤمناً يُريد وجه الله، فإن الناس إنما يُقربهم إلى الله الإيمان والتقوى، لا عبرة بالغنى ولا بالفقر.

وقد ذكر سبحانه ما يُناسب هذه الآيات في سورة الأنعام إلى قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُجْحِكُمْ مِنْ ظَلَمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَلْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُجْحِكُمْ مِمَّنَّا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾^(٢).

ثم إنه سبحانه قرّر في السورة بعد التوحيد الرسالة والكتاب المنزل، وذكر ما ذكره من رُسُلِهِ صلواتُ الله عليهم، وذكر المعاد والثواب والعقاب، ثم إنه ختم السورة بدمّ حال المشركين وما حرّمه وما شرّعه من الدين الذي لم يأذن به الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٣) إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص. والآية مكية لا يمكن نزولها في أهل الصفة.

(٢) سورة الأنعام: ٦٣-٦٤.

(٣) هذا جزء من الآية ٢١ من سورة الشورى، ولعلّ المؤلف يقصد هنا الآية ١٣٨ من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَبْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ طُحُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(١٣٨). فإن الآية التي ذكرها فيما بعد من سورة الأنعام، وهذه السورة هي التي يدور الكلام عليها هنا.

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ (١).

فأخبر عن المشركين أنهم احتجوا فيما شرعوه من الدين
وحرّموه من الأشياء بالقدر، فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا
آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ﴾ أي كذبوا بأمر الله ونهيه وخبره الذي بعث به رُسُلَه، فإن
هذا تكذيبٌ منهم للشرع محتجين عليه بالقدر.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
وَإِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾ فبيّن أنّ الاحتجاج بالقدر ليس بدليل على
صحة قول المحتجّ، فإنّ القدر متناولٌ لكل كائن، فالمحتجّ به لا
علمَ عنده، إن يظنّ إلا ظنًا، وهو في ذلك من الخارصين الحازرين
الكاذبين (٢).

وفي صحيح مسلم (٣) عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما
أخبر به عن الله أنه قال: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَأَلْتَهُم
الشياطينُ، وَحَرَمْتَّ عَلَيْهِمَ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمَ، وَأَمَرْتَهُمَ أَنْ يُشْرِكُوا بِي
ما لم أنزل به سلطانا. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي: قُمْ فِي قُرَيْشٍ فَأَنْذِرْهُمْ،
فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ إِذَا يَثْلُغُوا رَأْسِي حَتَّى يَجْعَلُوهُ خُبْرَةً. فَقَالَ: إِنِّي

(١) سورة الأنعام: ١٤٨-١٤٩.

(٢) بعده في الأصل: «وقال في سورة»، ولعل المؤلف كان يريد أن يكتب هنا
آية، فعدل عنها، وذكر الحديث الآتي.

(٣) برقم (٢٨٦٥). وأخرجه أيضًا أحمد ٤/ ١٦٢، ٢٦٦ وابن ماجه (٤١٧٩).

مُبْتَلِكَ وَمُبْتَلَّ بِكَ، وَمُنَزَّلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ. فَابْعَثْ جُنْدًا أَبْعَثْ مِثْلَهُمْ، وَأَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ».

وهذا الأصل مُبَيَّنٌ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، فَمَنْ شَرَعَ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، أَوْ احْتَجَّ بِالْقَدْرِ، وَجَعَلَ الْحَقِيقَةَ الْكُونِيَّةَ مَعَارِضَةً لِلْأَمْرِ ٢٤٦ب والنهي الشرعيين فقد ضاهى / هؤلاء المشركين.

ولهذا كان المتكلمون في علوم الحقائق على ثلاثة^(١) درجات:

إحداها: أهل الحقيقة الدينية الشرعية، الذين يتكلمون في حقائق الإيمان، كالحب لله، والتوكل عليه، وإخلاص الدين له، والخوف منه، والرجاء له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، ونحو ذلك من حقائق الدين بما يوافق الكتاب والسنة. فهذا أهل طريق أولياء الله المتقين وحزبه المصلحين وعباده الصالحين.

والثانية: من خاض في حقائق الدين بمجرد ذوقه ووجدته ورأيه، سواء وافقت الكتاب والسنة أو خالفت. فهذا^(٢) يصيبون تارة ويخطئون تارة، ويكونون من أهل السنة تارة ومن أهل البدعة أخرى.

الثالثة: من وقف عند الحقيقة الكونية القدرية، ولم يُمَيِّزْ بَيْنَ أولياء الله وأعدائه، ولا بين طاعته ومعصيته، ولا بين ما يُحِبُّهُ

(١) كذا في الأصل «ثلاثة» بإثبات الهاء.

(٢) كذا في الأصل بالافراد، والأولى «فهؤلاء» ليناسب الآتي.

ويرضاه وبين سائر ما قدّره وقضاه. فهؤلاء أهل ضلالٍ وتعطيلٍ، قد حقّقوا التوحيد الذي أقرّ به المشركون، ولم يدخلوا في توحيد الله ودينه الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون. فإن انتقلوا من ذلك إلى الحلول ووحدة الوجود والإلحاد فقد صاروا من أعظم أهل الكفر والإلحاد. وهؤلاء فيهم من الإشراك بالله والمخالفة لدينه ما لا يعلمه إلا الله، كما قد بسطنا الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضوع^(١).

والمقصود هنا الكلام على اسم «القطب» ومسامه،/ وما ٢٤٧ أ علمتُ أنّ السلف تكلموا بهذا الاسم في الرجال...^(٢)، ولا جعلوا اسم القطب مما يُعبّر به عن أحوال أولياء الله المتقين. بخلاف اسم «الأبدال»، فإنه نُقلَ عنهم التكلّم بذلك في مواضع.

وقد تكلم بعض المتأخرين بلفظ «الوتد»، والوَتْدُ: المُثَبِّتُ لغيره، كما أن الجبال أوتاد الأرض، فمن ثبتَّ اللهُ به الإيمانَ والتقوى في قلوب بعض عباده، أو ثبتَّ بدعائه وعبادته نصرهم ورزقهم، كان له من هذا المعنى نصيبٌ بحسب ذلك.

وأما قول القائل: «إنّ على قَدَمِ كل نبيٍّ من الأنبياء وليّان^(٣)»: وليٌّ ظاهر ووليٌّ باطن»، فهذا كذبٌ بلا ريب، فإنّ الأنبياء مئة ألفٍ

(١) انظر «مجموع الفتاوى».

(٢) هنا كلمة مطموسة في الأصل، ولعلها «الصالحين» وما في معناها.

(٣) كذا في الأصل بالرفع.

وأربعةٌ وعشرون ألفَ نبيٍّ^(١)، وأصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين
صحبوه أفضلُ الخلق، وما بلغوا هذا العدد، بل مكث النبي ﷺ إلى
حين الفتح أكثر من عشرين سنة، وما آمن معه إلا بضعة عشر ألفاً.
ومعلوم أن هؤلاء الأولياء لا يكونون بعد مبعثه في غير أمته، فإذا
كانت أمته في سنين كثيرة لا تبلغ هذا العدد عُلِمَ قطعاً بطلانُ ذلك.

وأيضاً فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه رأى الأنبياء، النبي يجيء
وحده، والنبي يجيء معه الرجل، والنبي يجيء معه الرجلان^(٢).
فإذا كان النبي قد لا يتبعه أحدٌ، أو لا يتبعه إلا رجلاً واحداً، فكيف
يجب أن يكون له في كل عصرٍ اثنان على قدميه من أمةٍ غيره؟

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) من طريق
إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني قال حدثنا أبي عن جدي عن
أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر. قال الهيثمي في «موارد الظمآن» (٩٤):
فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال أبو حاتم وغيره: كذاب.
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٦٦ - ١٦٨) والطبراني قسماً منه في
«المعجم الكبير» (١٦٥١) من طريق إبراهيم بن هشام به. وأخرجه أبو نعيم
في «الحلية» (١ / ١٦٧) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩ / ٤) من طريق آخر
عن أبي ذر، وفيه يحيى بن سعيد السعدي، قال العقيلي: لا يُتَابَعُ على
حديثه، وقال ابن عدي: يعرف بهذا الحديث، وهو منكر من هذا الطريق.
وأخرج بعضه أحمد في «مسنده» (٥ / ٢٦٥) من حديث أبي أمامة، قال
الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١ / ١٥٩): مداره على علي بن زيد، وهو
ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن
عباس.

وأيضاً فقولُه: «وليٌّ باطن ووليٌّ ظاهر» إن أُريدَ به وليٌّ يعرفه الناس ويظهر لهم ولايته، ووليٌّ لا يظهر لهم، فمن المعلوم أن الناس لا يظهر لهم ولايةٌ مئة ألف ولا عشرة ألف^(١)، ولا يُشهد بالولاية إلا لمن ثبت أنه ولي، إما بنصٍّ أو بما يقوم مقامه. وإن كان لا يُشهد بنفيها، لكن نحن نعلم قطعاً أنه لا يظهر ولاية هذا العدد للناس.

وإن أُريدَ بظهوره وجوده بين الناس وعلمهم به، فعامة الأولياء ظاهرون بهذا الاعتبار، بل ليس من الأولياء من لم يره الناس، وإذا قُدِّرَ أن فيهم من يختفي عن الناس كثيراً من أوقاته أو أكثرها، فلا بد أن يظهر لبعضهم في بعض الأوقات، ولو أنه ظهر/ لأبويه ومن ربّاه ٢٤٧ب إذا كان صغيراً. ثم هؤلاء في غاية القلة، وهم من أضعف الأولياء ولاية، بل القرون الفاضلة كان وجود هؤلاء فيها نادراً أو معدوماً، فإن سكنى البوادي والجبال والغيران واعتزال المسلمين من جمعهم وجماعتهم إما أن يكون منهيّاً عنه، وإما أن يكون صاحبه إذا عذر عاجزاً منقوصاً.

وأيضاً فقول القائل «إنّ الوليَّ على قدم النبي» لا يجوز أن يريد به اتباع شريعته، فإن بعد مبعث محمد لا يتقبل الله من أحدٍ إلاّ شريعته، ولو كان موسى حياً ثم اتبعه متبعٌ وترك شريعة محمد كان ضالاً^(٢)، فلم يبق إلاّ موافقته في بعض أخلاقه وأحواله، كما شبه

(١) كذا في الأصل «ألف» بدل «آلاف».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٣٨، ٣٨٧) =

النبي ﷺ أبابكر بإبراهيم وعيسى، وشبهه عمر بنوح وموسى^(١)،
وحيثند فيحتاج أن تكون أخلاق الأنبياء متفاوتة هذا التفاوت، وهذا
غير معلوم.

وأيضاً فإن غالب الأنبياء لم يُقَصُّوا على نبينا محمد ﷺ ولم
تعرفهم أمته، فكيف يكون من أمته من هو على قدم نبي لا يعرفه
ولا يعرف قدمه؟

وأيضاً فهذا كلام لا دليل عليه، ولم يقله من له قول في الأمة،
ولو كان مثل هذا حقاً لكان معروفاً عند أهل [العلم]^(٢) والإيمان.
فإن مثل هذا لو كان حقاً مما لا يخفى على أهل العلم والإيمان من
هذه الأمة، فإذا لم يكن له أصلٌ عندهم علمٌ بطلانُه.

= والدارمي (٤٤١) عن جابر مرفوعاً: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم
موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً وأدرك
نبوتي لاتبعني». وأخرج أحمد (٣ / ٤٧٠، ٤ / ٢٦٥) نحوه عن عبدالله بن
ثابت.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٣٨٣) والحاكم في المستدرک (٣ / ٢١) من
حديث عبدالله بن مسعود. وراجع كتب التفسير في تفسير سورة الأنفال:
الآيتين ٦٧-٦٨.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وانظر السطر الذي يليه لتعرف أن الزيادة من أسلوب
المؤلف.

فصل

وأما قول القائل: «الغوث الذي تنتهي إليه حوائج الخلق»،
 فحوائج الخلق لا تنتهي إلا إلى الله، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ (٥٣) (١)، وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٢)،
 وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٦) أَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٥٧) (٣). قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والمسيح والعزير،
 فأنزل الله هذه الآية (٤).

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ (١٠٢) (٥). وأفضل الخلق: الرسل، والله سبحانه

(١) سورة النحل: ٥٣.

(٢) سورة فاطر: ٢.

(٣) سورة الإسراء: ٥٦-٥٧.

(٤) أخرجه الطبري (١٥ / ١٠٤) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢٣٣٥) عن

ابن عباس.

(٥) سورة الكهف: ١٠٢.

بعثهم مبشرين ومنذرين ﴿لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرُّسُل﴾ (١)، وجعلهم سُفراءَ بينه وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، وسائر كلامه سبحانه وتعالى.

ولم يَضْمَنِ الرُّسُلُ للخلق لا رزقًا ولا نصرًا ولا هُدًى، بل قال أولهم نوحٌ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (٢)، وأمر خاتمهم وأفضلهم - صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليمًا - أن يقول ذلك، فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (٣)، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (٤)، وقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ (٥)، وقال له: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٦)، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ (٧)، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٨).

(١) سورة النساء: ١٦٥.

(٢) هذه الآية في سورة الأنعام: ٥٠، وليس في سياق قصة نوح. والآية التي أرادها المؤلف في سورة هود: ٣١ على لسان نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، فاشتبهت على المؤلف، وجلَّ من لا يسهو.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٤) سورة القصص: ٥٦.

(٥) سورة آل عمران: ١٢٨.

(٦) سورة الرعد: ٤٠.

(٧) سورة الرعد: ٧.

(٨) سورة الغاشية: ٢٢.

/ فقول القائل: «إن حوائج الخلق تنتهي إليه»، إن أراد به ما ٢٤٨ ب يحتاج إليه الخلق من الرزق والهدى والرزق^(١) يُحدِّثه الله بواسطته، فقد جعل بين الله [و] ^(٢) بين خلقه ربًّا متوسطًا، كما يزعمه المتفلسفة في العقل الفعال، وهو كفر صريح بإجماع أهل الملل. ثم إنه من أظهر الكذب، فإن أفضل الخلق محمدٌ ﷺ، وبعده أولو العزم كإبراهيم وموسى وعيسى، ونحن نعلم قطعًا أن عامة ما كان الله يُحدِّثه في زمانهم لم يكونوا متسببين فيه، ولا كانوا يعلمون به، وقد قال الخضر لموسى لَمَّا نَقَرَ العصفورُ في البحر: «ما نَقَصَ علمي وعلمك من علم الله إلا كما نَقَصَ هذا العصفور من هذا البحر»^(٣) فإذا كان هذا في العلم الذي لا تأثير معه، فكيف بالتأثير في الملك.

ومن قال: إن طير الهواء وحياتان البحر ووحوش الفلا والكفار الذين بأرض الهند والأجثة في بطون الأرحام تجري منافعهم ومصالحهم على يد رجلٍ من البشر، فقد قال نظير ما يقوله النصارى في المسيح، وكان قوله من أعظم الكذب القبيح^(٤).

(١) كذا وردت كلمة «الرزق» مرة ثانية في الأصل.

(٢) زيادة لا توجد في الأصل.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٢)، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧) ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب.

(٤) بعده في الأصل: «ثم إن»، ثم بياض في باقي الصفحة بقدر ستة أسطر، وكان المؤلف أراد أن يكتب شيئًا، ثم عدل عنه.

/ وإن قال: إن أهل الأرض إذا احتاجوا إلى شيء دَعَا اللهَ فَيُعْطِيهِ بدعائه، كان هذا من نمط الذي قبله، فإنه قد عَلِمَ أن الله يُجِيبُ دعوةَ المضطر إذا دعاه وإن كان كافرًا، فإذا كان المشركون يدعون الله بلا واسطة فَيُجِيبُ دعاءَهُم، فالمسلمون الذين هم عباده أولى. وقد يدعو الله بدعائه لم يعلم به أحدٌ من البشر.

فإن قيل: ذلك الغوثُ يطلع على أسرار قلوب العباد. كان هذا القول أظهرَ في الكفر والفساد، فسَيِّدُ ولدِ آدم يُظهِرُهُ على شيء وَيُخْفِي عليه أشياء. وقد قال له: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (١). وقال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (٢). وقد رُمِيَتْ أم المؤمنين بالإفك وأُخْفِيَ عنه أمرها مدَّةً، لما كان في ذلك له من المحنة، تعظيمًا لأجره ورفعًا لدرجته.

وكذلك لما جاء قوم زكَّوا بني أُبَيْرِقَ الذين كانوا قد سرقوا طعامَ جارِهِم ودرَّعَهُ، ظَنَّ صَدَقَ المَزْكِيْنَ ودفع عن المتهَمين، حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ﴾ (٣) الآيات.

(١) سورة التوبة: ١٠١.

(٢) سورة الأنعام: ٥٠.

(٣) سورة النساء: ١٠٥. وسبب نزولها الذي أشار إليه المؤلف، أخرجه الترمذي (٣٠٣٦) والحاكم في «المستدرک» (٤/ ٣٨٥-٣٨٨) من حديث قتادة بن النعمان. وانظر تفسير الطبري (٥/ ١٦٥ وما بعدها) وتفسير ابن أبي حاتم =

وفي الصحيح^(١) عنه أنه قال: «إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو مما أسمع». وفي لفظ: «فأحسبه صادقًا. فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

ولما رأهم يُلقحون النخل [قال]: «ما أظنّه يُغني شيئًا»، فتركوه، فصار شيئًا، فقال: «إنما أخبرتكم عن ظنيّ، فلا تؤاخذوني بالظنّ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فلن أكذب على الله»^(٢). وقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم، فما كان من أمر دينكم فإليّ»^(٣). ومثل هذا كثير، فإذا كان هذا أفضل الخلق وأعلمهم فكيف يجوز أن يقال في غيره إنه يعلم جميع أسرار من يحتاج إلى الله؟

/ ثم قد عُلم بالقرآن والتواتر والتجارب أن الخلق مازالوا ٢٤٩ ب يحتاجون إلى الله، ويضطرون إلى دعائه، إما في إعطائهم ما ينفعهم، كإنزال المطر، وإنبات النبات، وغفران الذنوب، والإعانة على الطاعات؛ وإما في دفع ما يكرهون، مثل دفع الأعداء وتفريج

= (٤ / ١٠٥٩ - ١٠٦٠) و«الدر المثور» (٢ / ٦٧٠).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨، ٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٩، ٧١٨١، ٧١٨٥) ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦١) من حديث طلحة بن عبيدالله، ورواه أيضًا أحمد (١ / ١٦٢، ١٦٣) وابن ماجه (٢٤٧٠). والشيص: هو البُسر الرديء الذي إذا يبس صار حشفاً.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة.

الكربات، وهو يجيب دعاءهم ويُعطيهم سُؤْلَهُمْ تحقيقًا لقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِعْلَهُمْ يَرْشُدُوا﴾ (١) من غير أن يرفعوا أمرهم إلى واسطة بينهم وبين الله.

وأيضًا فمزال الناس يُجْدِبُونَ ويستولي عليهم العدو، وهذا الغوث لا ينفع ولا يدفع، فياليت شعري ماذا هي الحوائج التي يقضيها؟ أهي التي سألوا الله فيها؟ فالله مجيبُ المضطر إذا دعاه، وهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، أم التي لم تُقَضَ بعدُ لأحدٍ فيها؟ أم النعم التي ابتدأهم الله بها من غير سؤالهم؟ فهو سبحانه يَرْزُقُ الكفار ويمنعهم، بل وينصرهم إذا شاء، كما نصرهم يومَ أحدٍ، ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ (٣).

فإن كان هذا الغوث ساعيًا في ذلك كان عاصيًا لله ورسوله، محاربًا لله ورسوله، فإن من حارب الله ورسوله وعباده المؤمنين كان من أعداء الله لا من أولياء الله. وما يرويه أهل الكذب والضلال من أن أهل الصفة قاتلوا النبي ﷺ وأصحابه لما انهزم أصحابه يوم حنين أو غير يوم حنين، وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان مع الله ٢٥٠ كنا معه، من أعظم الكذب الموضوع (٣) / وأعظم الكفر بالله

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠-١٤١.

(٣) ذكر المؤلف في «مجموع الفتاوى» (١١ / ٤٧-٤٩) هذه الرواية، وبيّن كذبها =

ورسوله، وهذا يقوله من ينظر إلى مجرد ما يقدره الله ويقضيه، ويشهد الحقيقة الكونية، مُعرضاً عما يحبه الله ويرضاه، وما أمر به ونهى عنه، وبعث به رسله وأنزل به كتبه. ومن طرد هذا القول كان أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وصاحب هذا المشهد لا يؤمن بشيء من الكتاب، وغايته في شهوده تحقيق توحيد المشركين كأبي لهب وأبي جهل وأمثالهما من الكفار، فإن أولئك كانوا يَقْرُونَ بأن الله رب كل شيء وخالقه، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١). فمن جعل غاية تحقيقه في توحيدِه أن يشهد ذاك، كان منتهاه هذا الإشراك.

والله سبحانه بعث الرسل بتوحيد الإلهية، وهو أن لا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ويخلص له الدين، ويطيع رسله ويتبعهم، ويحب ما أحب ويُبغض ما أبغض، ويوالي من والى ويعادي من عادى، ويأمر بما أمر وينهى عما نهى، حتى يكون الدين كله له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً

= وبطلانها، وحكم على من يقول بها أنه ضال غاير، بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك، فإن تاب وإلا قُتل.

(١) سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٥.

يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٢) ، / وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبیین أرباباً فهو كافر، فكيف بغيرهم؟ وقد قال عن النصارى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤) . ومعلوم أن النصارى لم تجعل الأحرار والرهبان شركاء لله في خلق السماوات والأرض، ولا جعلت النبیین كذلك، بل جعلتهم وسائط بينهم وبين الله في الإعطاء والمنع والضر والنفع، وأعطوهم من الدعاء والطاعة ما لا يستحقه إلا الله، وظنوا أنهم يشفعون لهم عند الله كما يشفع المخلوق عند ملوك الدنيا، يشفع عنده من يعز عليه ومن يحتاج إليه، والله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ولا أحكامه، ولا شيء من دونه سبحانه وتعالى، فهو الذي يأذن للشفيع فيشفع، وهو الذي يقبل شفاعته، فالأمر منه وإليه، لا

-
- (١) سورة الزخرف: ٤٥ .
 (٢) سورة النحل: ٣٦ .
 (٣) سورة آل عمران: ٧٩ - ٨٠ .
 (٤) سورة التوبة: ٣١ .

خالق غيره ولا رباً سواه، فلا يُرَجَى غيره، والشفاعة من جملة الأسباب التي قَدَّرَها وقضاها، يفعل بها كما يفعل بسائر ما يُقَدَّرُ من الأسباب.

وأما لفظ «النجباء» فهذا لا يُعرَفُ في كلام أحد من السلف من أقسام عباد الله الصالحين وأولياء الله المتقين، وإنما تكلم به بعض الشيوخ المتأخرين.

وأما قول القائل: «إن النجباء بمصر والأبدال بالشام والنقباء بالعراق» ونحو هذا الكلام، فهذا الكلام على الإطلاق باطل قطعاً، فإن هذه الأمصار كانت في أول الإسلام ديارَ كفر، لم يكن بها أحدٌ من أولياء الله، ولما صارت دارَ إسلام صار فيها من أولياء الله المتقين بحسب ما في أهلها من الإيمان والتقوى، ولا يختص إقليم من هذه الأقاليم بالأبدال. ومن قال إن الأبدال لا يكونون إلا بالشام فقد أخطأ، فإن خيارَ هذه الأمة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كانوا بالمدينة النبوية، ولما فتحت الأمصار كان في كل مصرٍ من خيار المسلمين من لا يُحصيه إلا الله.

وقد جاء في فضائل الشام وأهلها أحاديث معروفة^(١) لم يجيء مثلها في العراق وغيره من الأمصار، مثل قوله في الحديث الصحيح: «إن ملائكة^(٢) الرحمن باسطة أجنحتها على الشام»^(٣).

(١) انظر «فضائل الشام ودمشق» للربيعي، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (الجزء الأول) و«فضائل الشام» لابن رجب وغيرها. وراجع «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٥٠٥ - ٥١١).

(٢) في الأصل «أجنحة»، وهو سبق قلم، والتصويب من مصادر التخريج الآتية.

(٣) أخرجه أحمد (٥ / ١٨٤) والترمذي (٣٩٥٤) والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٢٢٩) من حديث زيد بن ثابت. قال الترمذي: حسن، وصححه الحاكم والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٦٣) والألباني في «تخریج أحاديث =

وقوله: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»^(١). وفي القرآن أربع آيات تدل على حصول البركة في الشام^(٢). ومثل قوله لعبدالله بن حوالة لما قال: «إنكم ستُجندون أجنادًا مُجندةً جندًا بالشام وجندًا باليمن وجندًا بالعراق»، فقال عبدالله بن حوالة: يا رسول الله! اختر لي، فقال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يَجْتَبِي إليها خَيْرَتَهُ من عبادِهِ، فمن أبى فليَلْحَقْ بيمينِهِ، وليسق من غُدْرِهِ، فإنَّ الله قد تكفَّلَ لي بالشام وأهلِهِ». رواه أبو داود وغيره^(٣).

وفي «صحيح مسلم» وغيره عنه أنه قال: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة»^(٤). قال الإمام أحمد: أهل الغرب هم أهل الشام. / وهذا الذي قاله ٢٥١ ب

= فضائل الشام» (ص ١١).

- (١) أخرجه البخاري (١٠٣٧، ٧٠٩٤) من حديث ابن عمر. وأخرجه أيضًا أحمد (٢/ ٩٠، ١١٨) والترمذي (٣٩٥٣).
- (٢) هي خمس آيات في سورة الأعراف: ١٣٧؛ وسورة الإسراء: ١؛ وسورة الأنبياء: ٧١، ٨١؛ وسورة سبأ: ١٨. وانظر «مجموع الفتاوى» (٥٠٦/٢٧).
- (٣) أخرجه أبو داود (٢٤٨٣) وأحمد (٤/١١٠) من طريق أبي قتيلة عن ابن حوالة، وإسناده صحيح. وأخرجه أحمد (٥/٣٣) والحاكم في «المستدرک» (٤/٥١٠) من طريق مكحول عن ابن حوالة بنحوه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وللحديث طرق أخرى في «تاريخ دمشق» (١/٥٦-٨١). وذكرها الألباني في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» (ص ١٢-١٣) وتكلم عليها.
- (٤) أخرجه مسلم (١٩٢٥) وأبو يعلى في «مسنده» (٧٨٣) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٩٥-٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص.

أحمد هو معروف عند السلف، كانوا يسمون أهل الشام وما يغرب عنها أهل الغرب^(١)، ويسمون أهل نجد والعراق وما يشرق عن ذلك أهل الشرق. فإن النبي ﷺ كان بالمدينة النبوية، فما يغرب عنها فهو غرب، وما يشرق عنها فهو شرق.

وقد جاء في بعض الآثار أنَّ أكثر الأبدال بالشام^(٢).

فأما الحديث المأثور «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال، أربعين رجلاً، كلما مات رجلٌ أبدل الله مكانه رجلاً»، فهذا يُروى عن علي بن أبي طالب بإسنادٍ منقطع، وهو في «المسند»^(٣) وغيره، وهو من رواية بعض الشيوخ الشاميين عن علي، وهو لم يسمعه منهم، وإنما بلغه عن عليّ بلاغاً، فلم يضبط له لفظه.

وإذا كان الأبدال الأربعة أفضل الأمة فمن الممتنع أن يكونوا في زمن علي بالشام، فإن الأمة في زمن علي كانوا ثلاثة أصناف: صنفٌ قاتلوا معه، كعمّار وسهل بن حنيفة وأمثالهم، فهؤلاء مع

(١) انظر كلام المؤلف في «مجموع الفتاوى» (٧ / ٤٤٦، ٢٧ / ٤١، ٥٠٧، ٢٨ / ٥٣١، ٥٥٢).

(٢) أخرج الربيعي في «فضائل الشام ودمشق» (ص ٤٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢ / ٢٨٦) من حديث وائلة بن الأسقع مرفوعاً: «ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدن أهلاً، وهي تكون لأهلها معقلاً، وأكثر أبدالاً...». قال الألباني في «تخريج أحاديث فضائل الشام» (ص ٤٠): حديث منكر، تفرد بروايته محمد بن إبراهيم أبو عبدالله الغساني.

(٣) ١١٢ / ١.

علي بن أبي طالب لم يكن بالشام مثلهم، بل علي ومن معه أولى بالحق من معاوية ومن معه من الشاميين، كما في الصحيحين^(١) عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «تمرق مارقة علي حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق»، وفي لفظ: «أدناهما إلى الحق».

فهذا حديث صحيح صريح بأن عليًا وطائفته أولى بالحق من الطائفة الأخرى معاوية وطائفته.

/والصنف الثاني من المؤمنين من لم يقاتل، لا مع علي ولا ٢٥٢
معاوية، كسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبدالله بن عمر وأسامة بن زيد وأمثالهم، فهؤلاء أيضًا أفضل من أهل الشام، وقد كان في ليف أهل الشام من هو أفضل من كثير من أهل العراق والحجاز.

أما من لم يشهد القتال مع معاوية فإن في الشاميين من لم يقاتل معه كأبي أمارة الباهلي وغيره. وأما من كان في عسكره فقد كان في عسكره أيضًا قوم صالحون لهم اجتهاد وحسن مقصد، وبكل حال فلا يعتقد مسلم أن علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف ومحمد بن مسلمة وأمثالهم من السابقين الأولين الذين يشهد الكتاب والسنة بفضلهم علي من بعدهم، كان

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٥) فقط. ورواه أيضًا أحمد (٣/ ٢٥، ٣٢، ٤٥، ٤٨، ٦٤، ٧٩، ٩٧) وأبو داود (٤٦٦٧).

الأبدال الأربعة الذين هم أفضل الأمة خارجين عنهم في حياتهم .

فهذا الأصل المعلوم بالكتاب والسنة والإجماع لا يعارضه خبر واحد رواه الثقات، بل يُنسبون في ذلك إلى الغلط، فكيف بحديث منقطع فيه من الريبة ما لا يخفى .

٢٥٢ب

/ومما يبين ذلك أن الذين نطقوا بلفظ «الأبدال» من السلف كانوا يجعلون من الأبدال من ليس بالشام، كما في حكاية أن مالك ابن دينار ومحمد بن واسع وغيرهما من الأبدال^(١)، وفي حديث معدان الذي سأل الثوري عن قوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾^(٢) فقال: بعلمه^(٣)، قالوا: وكان معدان من الأبدال. ومثل هذا كثير في كلامهم .

وأما لفظ «النقباء» و«النجباء» في أولياء الله، فقد تقدم أنه ليس لذلك أصلٌ في كلام السلف .

(١) رواها أبو نعيم في «الحلية» (٣/١١٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠١/١).

(٢) سورة المجادلة: ٧ .

(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة» (ص ٧٢) والآجري في «الشریعة» (ص ٢٨٩) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/٤٠١)، وأورده ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ١٢٧) والذهبي في «العلو» (كما في «مختصره» ص ١٣٩). وكلهم ذكروا قول الثوري في تفسير قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [سورة الحديد: ٤].

فصل

وأما قول القائل: «إن الشدة إذا نزلت بأهل الأرض يرفعها الأدنى إلى الأعلى، حتى ينتهي الأمر إلى الغوث، فلا يرفعُ بصره حتى تنفرج تلك النازلة»، فهذا من أعظم البهتان من وجوه:

أحدها: أن هذا الغوث المدعى ليس بأعظم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم. وهؤلاء سادة الخلائق، يُجيبُ الله من دعائهم ما لا يجيب من دعاء غيرهم، وهم الذين تُطلبُ منهم الشفاعةُ يومَ القيامة، حتى يُنتهى إلى خاتم الرسل محمد ﷺ، فيقول عيسى: اذهبوا إلى محمد، عبدِ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: «فيأتوني، فأذهبُ إلى ربي، فإذا رأيته خَرَرْتُ ساجداً، فأحمدُ ربي بمحامدٍ يفتحها عليّ لا أحسنها الآن، فيقول: أيُّ محمد! ارفع رأسك، وقلُ تُسمع، وسلُ تُعطه، واشفَعُ تُشفَعُ». قال: «أرفع رأسي فأقول أمتي أمتي، فيحدُّ لي حدًّا يدخلهم الجنة...» الحديث بطوله^(١). وأحاديث الشفاعة من أصح الأحاديث وأشهرها.

فهذا سيد الخلائق وصاحب المقام المحمود لا يبتدىءُ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠) ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك.

٢٥٣ بالشفاعة بل بالسجود والثناء، / حتى يؤذن له بالشفاعة فيشفع ثم يشفع.

أما في الدنيا ففي الصحيح^(١) عنه قال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يُسلط على أمتي عدواً من غيرهم فيجتأحهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك بسنة عامة، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها».

وفي الصحيح^(٢) أنه قال لعمره: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانُ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾^(٣). وقد صلى على عبدالله بن أبي ودعا له^(٤)، حتى أنزل الله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَابَ أَبَدًا وَلَا نَقْمًا عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾^(٥). وقال له: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾^(٦).

(١) مسلم (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص. ورواه أيضاً أحمد (١) / (١٧٥، ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢) ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

(٣) سورة التوبة: ١١٣.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٦٩، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢، ٥٧٩٦) ومسلم (٢٤٠٠)،

(٢٧٧٤) من حديث ابن عمر. وأخرجه البخاري (١٣٦٦، ٤٣٧١) من حديث عمر بن الخطاب.

(٥) سورة التوبة: ٨٤.

(٦) سورة المنافقين: ٦.

وثانيه في الفضيلة الخليل، فإنه قد ثبت في الصحيح^(١) أنه خير البرية، وهو أفضل الرسل بعد محمد ﷺ، وقد استغفر لأبيه بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٢)، ومع هذا فآزر في جهنم. وقد اعتذر الله عن إبراهيم من استغفاره له^(٣). وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ نُوحٌ بِبَشِيرٍ مِّنْهُمَا بَعَثَ إِلَيْهِ إِسْرَائِيلَ وَطَارِقَ ۗ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(٤)، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَكَ أَمْرٌ رَّيْبٌ وَإِنَّهُمْ ءَانِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾^(٥).

وأيضاً فالأنبياء صلوات الله عليهم كانوا يجتهدون في الدعاء، كما كان النبي ﷺ يدعو في مقاماتٍ معروفة، ففي يوم بدر كان يناشد ربه ويجتهد في الدعاء حتى أتته البشري بنزول الملائكة^(٥)؛ وفي الاستسقاء اجتهد في الدعاء^(٦)، تارة في المسجد وتارة في

(١) مسلم (٢٣٦٩) عن أنس. وأخرجه أيضاً أحمد (٣/ ١٧٨، ١٨٤) وأبو داود (٤٧٨٢) والترمذي (٣٣٥٢).

(٢) سورة إبراهيم: ٤١

(٣) في سورة التوبة: ١١٤ ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَ فُلْمَا بَيْنَ لَهُ ۗ إِنَّهُ كَدُورٌ لَّهِ تَبَرَّأَ مِنِّي إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

(٤) سورة هود: ٧٤-٧٦.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) عن ابن عباس. وأخرجه مسلم (١٧٦٣) عن عمر بن الخطاب.

(٦) وردت أحاديث عديدة في الاستسقاء، منها حديث عبدالله بن زيد الذي أخرجه البخاري (١٠٢٣-١٠٢٥) ومسلم (٨٩٤)، وفيه ذكر الدعاء قبل الصلاة. وحديث أنس بن مالك الذي أخرجه البخاري (٩٣٣، ١٠١٣، ١٠١٩، ١٠٢١) ومسلم (٨٩٧)، وفيه ذكر الدعاء في خطبة الجمعة.

الصحراء، حتى نزل الغيث. فإذا كانت الشدة لم تزل إلا بعد
٢٥٣ ب اجتهادهم/ في الدعاء في هذه المواطن، فكيف يكون غيرهم لا
يرفع بصره حتى تدفع النوازل؟

ثم إن الأمة قد نزل بها من الشدائد ما لا يحصيه إلا الله،
واتصل بعضها مدّة، فأين كان هذا الغوث؟ وحدثوني عن الشيخ
عبدالواحد بن القصّار - وكان من الشيوخ العارفين - أنه في اليوم
الذي أخذت فيه بغداد، كُشِفَ له عن ذلك والسيفُ يعمل في
أهلها، فجعل يقول: أين القطب، أين الغوث؟ هذا السيف يعمل
في أمة محمد ﷺ.

وأيضاً فكل مسلم يعلم من نفسه أن هذه الشدائد العامة لم
يتركها هو وأصحابه لشخص معين، بل دعوا الله سبحانه كما يدعونه
عند الاستسقاء، وكما يدعونه عند الاستنصار على الأعداء، لا أحد
يرفع أمره إلى غير الله، اللهم إلا ما يقوله بعض الناس لبعض كما
جرت به العادة، فمن الأدنى الذي يرفع هذه الأمور إلى الأعلى؟

وأيضاً فقد أخبر الله عن المشركين أنهم يدعونه إذا مسهم الضرُّ
مخلصين له الدين، فيُجيبهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ
ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا بَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (١).
وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا

(١) سورة الإسراء: ٦٧.

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾^(١). وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾^(٢). ونظائره في القرآن كثيرة.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي / وَيُؤْمِنُوا بِإِلْعَاقِهِمْ يُرْشِدُونَ ﴿١٨٦﴾^(٣)، ٢٥٤ أ فهو سبحانه قريب مجيب.

وفي الصحيحين^(٤) أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إنكم لا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِي رَاحِلَتِهِ».

وقد قال الخليل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾^(٥)، وقال النبي ﷺ والمؤمنون في الصلاة: «سمع الله لمن حمده». فإذا كان هو سبحانه سميع الدعاء، مجيباً لدعوة عباده، قريباً منهم، يُجِيبُ الْكُفَّارَ إِذَا دَعَوْهُ مُضْطَرِّينَ، فَكَيْفَ يُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى وَسَائِلِ فِي رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمَلُوكُ؟

وهو سبحانه يُكَلِّمُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَاجِبٌ

(١) سورة يونس: ١٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٥-٦٦.

(٣) سورة البقرة: ١٨٦.

(٤) البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٢، ٦٣٨٤، ٦٤٠٩، ٦٦١٠، ٧٣٨٦) ومسلم (٢٧٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

(٥) سورة إبراهيم: ٣٩.

ولا ترجمان، كما في الصحيح^(١) عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجبٌ ولا ترجمانٌ، فيَنْظُرُ أَيَمَنَ منه فلا يَرَى إلا شيئاً قَدَّمَهُ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ منه فلا يَرَى إلا شيئاً قَدَّمَهُ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النارُ، فمن استطاعَ منكم أن يتقي النارَ ولو بِشِقِّ تمرَةٍ فليفعل، فإن لم يستطع فبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

والمصلي يقول في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢). وفي الصحيح^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المصلي يناجي ربه»، وقال^(٤): «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الله قَبْلَ وجهه، فلا يَبْصُرَنَّ قَبْلَ وجهه». فإذا كان العبد يناجي ربه ويخاطبه، والله يَسْمَعُ كلامه ويوجب دعاءه، فأين حاجته إلى الوسائط التي ما أنزل الله بها من سلطان؟ / التي يعلم كل عاقلٍ من أهل الإيمان أنها من تأويل أهل الشرك والبهتان. وشواهد هذه الأصول كثيرة، قد بَسِطْتُ في غير هذا الموضع.

والكتاب والسنة مملوء^(٥) بما يُناقضُ دعوى هؤلاء المفتريين.

(١) البخاري (٦٥٣٩، ٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦).

(٢) سورة الفاتحة: ٥.

(٣) البخاري (٤٠٥، ٤١٣، ٤١٧، ٥٣١، ١٢١٤) ومسلم (٥٥١) من حديث أنس بن مالك.

(٤) أخرجه البخاري (٤٠٦، ٧٥٣، ٦١١١) ومسلم (٥٤٧) عن ابن عمر.

(٥) كذا في الأصل بالإفراد، كأن الكتاب مع السنة شيء واحد.

وهذا كله - الذي عليه هم - شعبة قوية من شعب دين
النصارى، الذين ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

وقد أمرنا الله أن نقول في صلواتنا: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم،
والنصارى ضالون» (٣). فاليهود شبَّهوا الخالق بخلقه، فوصفوه
بصفات النقص والعيب، كالفقر والبخل واللُّغوب. والنصارى
شبَّهوا المخلوق بالخالق، فوصفوه بصفات الإلهية التي لا يستحقُّها
إلا الله، حتى أشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطاناً. ولهذا قال تعالى:
﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ
يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة الفاتحة: ٦-٧.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨) والترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) من حديث عدي بن
حاتم، ضمن حديث طويل. قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٤٢): وقد روي
حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

(٤) سورة المائدة: ١٧.

الرُّسُلُ وَأُمَّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَا كِلَانَ الطَّعَامُ» (١).

١٢٥٥ / وفي الصحيح (٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وقد حَسَمَ ﷺ مَوَادَّ الشَّرِكِ قَوْلًا وَعَمَلًا، حَتَّى قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ» (٣). وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثْنَا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (٤). وَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا (٥). وَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ

(١) سورة المائدة: ٧٥.

(٢) البخاري (٣٤٤٥) مختصرًا و(٦٨٣٠) مطولاً من حديث ابن عباس عن عمر ابن الخطاب.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢، ٣٩٨) والدارمي (٢٧٠٢) وابن ماجه (٢١١٨) من حديث طفيل بن سخبرة، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨) وأبو داود (٤٩٨٠) من طريق عبدالله بن يسار عن حذيفة بن اليمان. وأخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣) وابن ماجه (٢١١٨) من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة به نحوه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦) والحميدي (١٠٢٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٣، ٧/ ٣١٧) بإسناد صحيح عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦) ومواضع أخرى) ومسلم (٥٣١) عن عائشة وابن عباس.

القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(١). ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها^(٢).

والله سبحانه لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً وإن كان بدأ باسمه بالسؤال أحداً، فلم يأمره به، بل قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾^(٣). وقال لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٤).

وفي الصحيح^(٥) عنه أنه قال في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتَوُونَ ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى ربهم يتوكلون». فجعل من فضائلهم أنهم لا يطلبون من غيرهم رُقِيَةً وإن كانت الرُقِيَةُ دعاءً. فهذا وصفٌ خواصِّ عبادِ الله. وهذا باب واسع، قد بُسِطَ في غير هذا الموضوع^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبدالله البجلي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦، ١١٩٧، ١٨٦٤، ١٩٩٢، ١٩٩٥) ومسلم (٨٢٧) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) سورة الشرح: ٧-٨.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧) والترمذي (٢٥١٦) من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس. وللحديث طرق أخرى كثيرة يرتقي بها إلى درجة الصحة.

(٥) البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) عن ابن عباس. وأخرجه مسلم (٢١٨) عن عمران بن حصين.

(٦) كتب بعده في الأصل: «والله سبحانه أعلم. كتبه أحمد بن تيمية»، ثم شطب عليه، وواصل الكتابة فيما بعد.

/ و غاية ما يُراد بالمشايخ الصالحين ما يُراد من الأنبياء والمرسلين، والمراد منهم تبليغ رسالاتِ الله وهدايةُ عباد الله، والدعوة إلى الله، هذا هو المقصود الأعظم. ولهم أيضًا من الدعاء لعباد الله والشفاعة لهم ما هو من الأمور المطلوبة، لكن الأمر كله لله، وقد جعلَ اللهُ لكل شيء قدرًا.

ودعاء الله من الأنبياء والمؤمنين للعبد هو من نِعَمِ الله عليه، وأسعدُ الناس بذلك أعظمُ إخلاصًا لله وتوكلًا عليه، كما في الصحيح^(١) أَنَّ أبا هريرة قال: يا رسول الله، أيُّ الناس أسعدُ بشفاعتِكَ؟ قال: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ قبلك، أسعدُ الناس بشفاعتي مَنْ قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجهَ الله».

فالعبدُ مأمورٌ أن لا يتوكلَ إلا على الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعمل إلا له. والله يُيسرُ له من الأسباب ما لم يكن له في حساب، فإنه سبحانه يتولى الصالحين، وهو كافٍ عبده، وقد قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) أي حَسْبُكَ وحسبُ مَنْ اتبعك من المؤمنين اللهُ، فهو وحده كافٍ عباده لا يحتاج إلى ظهير ولا شريك. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ

(١) البخاري (٩٩، ٦٥٧٠).

(٢) سورة الأنفال: ٤٦.

الذَّلَّ ﴿١﴾. فإن المخلوق ذليل يتولى من يتولاه لِذُلِّهِ، فإنه إن لم يكن له مَنْ يُعِينُهُ وينصره/ عَجَزَ وَذَلَّ، وَقَهَرَهُ عَدُوُّهُ. واللهُ تعالى لا يأۡتِي عِبَادَهُ مِنَ الذَّلِّ، بل بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، وهو الغني عن كلِّ ما سِوَاهُ، وكل ما سِوَاهُ فقيرٌ إليه، ﴿يَسْتَلْهُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٢٩﴾. قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿٣﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْفُتُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿٤﴾. وقال تعالى: ﴿إِنْ كُفِّرُوا كُفْرًا يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَالرَّحْمٰنِ عِبَادًا﴾ ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصِمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ ﴿٥﴾.

وهذا كثير في كتاب الله، والله سبحانه أعلم. كتبه أحمد بن

تيمية.

(١) سورة الإسراء: ١١١.

(٢) سورة الرحمن: ٢٩.

(٣) سورة سبأ: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨.

(٥) سورة مريم: ٩٣-٩٥.